التوثيق، والتوثيق الفلسطيني

لا تاريخ دون وثائق، وبالتالي لا مستقبل، ثقافياً او سياسياً، دون تاريخ. والوثائق تعتبر، بحق، الذاكرة الفعلية لأية امة من الامم، ولأي حقبة من حقب التاريخ. لذا، فان الاهتمام بالوثائق وحفظها ـ وهو ما اصطلح على تسميته بالتوثيق Documentation ـ يعتبر احد اهم المقاييس لتحديد ومعرفة مدى تطور هذه الامة أو تلك، لا رتباطه، جدلياً، بمدى الوعي الوطني، من جهة، وبدرجة تقدمه، من جهة اخرى.

ولم يكن التوثيق بالنسبة للفلسطينيين، كشعب، يرتبط، تاريخياً، بأقوى العرى مع شعوب المنطقة الشرق اوسطية، التي ازدهرت ضمن حضارات الشرق القديم كالحضارة السومرية والبابلية والفرعونية والكنعانية، بالأمر الخاص، فقد جرى عمل حفظ الوثائق الاساسية وحفظها على انواع متشابهة من الطين، والزجاج. وقد تطورت مسائل الحفظ تلك مع تأسيس الكنيسة، كهيئة دينية مستقرة، تعتبر الفلاحين رعاياها الروحانيين. ولعل أول ارشيف عالمي تم تأسيسه هو ارشيف بول الخامس، في اوائل القرن السابع عشر، في الفاتيكان. اما على صعيد «الارشيف الوطني»، بمعناه السياسي، التابع للدول، فكان تأسيسة في باريس سنة ١٧٩٠، وهو أول ارشيف وطني في العالم، ولا يزال متواصلاً للآن.

وفي بريطانيا، تم تنظيم قانون «دار الوثائق» في سنة ١٨٣٧، كما تم الإعلان في سنة ١٨٨٨ عن ولادة جمعية الوثائق البريطانية. وقد اسهمت هذه الجمعية بدور رئيسي في تنظيم السجل الوطني للارشيف العام ١٩٤٥. ولظروف الاستعمار في الوطن العربي، تأخرت عملية التوثيق في الاقطار العربية الى ما فترة ما بعد استقلال هذه الاقطار، ثم جرت في أوقات متفاوتة. الا انه يمكن الاعتماد على الارشيف الوطني للدول المستعمرة للاقطار العربية، فيما يختص بوثائق الاستعمار في تلك الدول، ووثائق تلك الدول من سياسية واقتصادية واجتماعية. وفيما يخص الوضع الفلسطيني، يمكن الوقوع على الوثائق في ملفات وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات البريطانيتين.

لذا، فان فلسطين، بحكم فقدانها النظام السياسي المستقل منذ وقوعها تحت نير السلطنة العثمانية، ومع انتقالها الى مرحلة الانتداب البريطاني في اوائل العقد الثالث من هذا القرن، لم تنشىء ادارة وطنية فلسطينية، وفقا لصك الانتداب البريطاني، حتى سنة ١٩٤٨. اما في هذه السنة، فقد تمكنت الحركة الصهيونية من فرض سيطرتها على الجزء الاكبر في فلسطين والاعلان عن قيام «اسرائيل» فيه. لذا، لم تعرف فلسطين الارشيف الوطني او اية مؤسسة وثائق خاصة مستقلة.

ويمكن تقسيم وثائق تلك الفترة على النحو التالي: الوثائق العثمانية المتعلقة بفلسطين؛ والوثائق البريطانية الخاصة بوزارة المستعمرات، والمتعلقة بفلسطين؛ وثائق الاحزاب السياسية الفلسطينية، والهيئات واللجان الشعبية؛ ووثائق الصحف الفلسطينية، في الفترة الانتدابية البريطانية؛ والوثائق العربية، المتعلقة بالقضية الفلسطينية ١٩٢٢ ـ ١٩٤٨.

وقد كشفت بريطانيا عن جزء من وثائقها المتعلقة بالقضية الفلسطينية، حيث يتم الكشف عن الوثائق بعد مرور ثلاثين عاما.

اما تلك الوثائق المتعلقة بالاحزاب السياسية الفلسطينية، كحزب الدفاع والحزب الشيوعي وحزب الاستقلال العربي، ووثائق اللجنة التنفيذية، ووثائق الحزب العربي وغيرها، فمعظمها كان محفوظاً، بشكل شخصي، لدى بعض قادة هذه الاحزاب، والاخر كان محفوظا في ذاكرة اصحابه.